النخاسة وعلاقتها بالامراض

تجارة الرقيق أو العاج الأسود

انتشرت تجارة الرقيق فى القرون الماضية انتشارا كبيرا، ويظهر أنها بدأت أول ما بدأت فى أواسط افريقا ثم انتقلت منها الى جهات مختلفة ومارستها دول كثيرة بلغ بعضها من الحضارة شأوا كبيرا. وقد كانت تدر على المشتغلين بها ربحا هائلا، ذلك فوق ما كان لها من شأن كبير فى تعمير بلاد اكتشفت حديثا وخلت من اليد العاملة؛ ولولا ما قام به العبيد من العمل الجسمانى المضنى لبقيت قاعا صفصفا.

وكانت هذه التجارة كذلك سببا فى انتشار أمراض كثيرة من أفريقا الى أوروبا والى الدنيا الجديدة، ولولا أن الفئة التى كانت تُرسل عادة إلى تلك الجهات فئة منتقاة لزادت الأمراض انتشارا ولكان ضررها أبلغ.

كان الرقيق ينقسم الى قسمين:

القسم الأول وهو الأكثر انتشارا ولا زالت آثاره باقية

الى الآن ينحصر فى أن تمتلك الأسر الكبيرة عددا من الزنوج يختلف مع مركز كل منها ومقدرتها على ايوائهم واطعامهم ، ويقوم هؤلاء العبيد بخدمة الأسرة فيلازمونها طول حياتهم كما يلازمها أولادهم من بعدهم ، وهؤلاء قل أن يباعوا أو يشتروا الا للضرورة القصوى كاهمال جسيم أو مرض مستعص ، وقد كانوا غالبا يعاملون معاملة تنطوى على كثير من الرفق والشفقة ، بل وربما عوملوا في بعض الأسر الكريمة كأنهم من أفرادها ، حتى انهم كثيرا ما خُيروا بين الرق والحرية ففضلوا الأول . ولا زلنا نرى فى مصر ولا سيما فى الصعيد آثار هذا العهد فلا زال هناك أناس لا يأنفون أن يسموا أنفسهم عبيـــدا لأسرة من الأسر القديمة .

أما الصنف الثانى من الرقيق (وهو من الوجهة التاريخية ومن وجهة الصحة العامة أهم من الصنف الأول لما تسبب عنه من انتشار أمراض وبائية كثيرة) فينحصر فى أسرى الحروب التى كانت منتشرة انتشارا كبيرا بين القبائل والتى ربما كان السبب الحقيقى فى اثارتها هو الحصول على العبيد ،

إذ يقال ان بعض زعماء القبائل كانوا يتفقون فيما بينهم على شن حروب كانت تنتهى بأن يأخذ كل منهم الأسرى من الفريق الآخر ، فيجعلون منهم عبيداً يبيعونهم بأثمان تتفق مع سنهم وحالتهم الصحية ومقدرتهم على العمل ، وكان هـــذا الصنف من العبيد — على النقيض من الصنف الأول — يعامل معاملة فيها كثير من الغلظة والقسوة ، فيسام العبد أقصى أنواع العذاب وتوثق يداه وتُغل قدماه بالحديد وتحاط رقبته بطوق يتصل بمعصم مالكه بسلسلة من الحديد ، وتوضع بين أسنانه قطعة من الخشب تمنعه من الصراخ أو العويل ، وكان لا يحصل من الطعام إلا على التافه القليل ، اللهم إلا قبيل بيعه إذ يهيأ لذلك بقسط قليل من الراحة والطعام ، ولم تكن طرق الغش فى هذه التجارة أقل انتشاراً منها فى أنواع التجارة الأخرى ، فاذا ما كان العبد متقدماً فى السن نُتف ما ابيض من شعره وأُلبس الملابس الزاهية البهيجة حتى يبدو أصغر سناً وأحسن منظراً .

وقد انتشرت فى بعض القبائل عادات تدل على مبلغ ما وصل اليه استهتار الناس بأرواح هؤلاء العبيد إذ يقال إنه كان

عند ما يموت رئيس الأسرة يُذبح من العبيد عدد يتفق مع مركزه ويُروى قبره بدمائهم ، هذا فضلا عمن يدفنون معه أحياء ولعل ما نشاهده فى عصرنا هذا من نحر الذبائح فى المآتم ، ما هو إلا أثر من آثار تلك العهود المظلمة .

كان من أكثر البلاد مورداً للعبيد بلاد الكونغو والصومال وزنجبار والحبشة وساحل العاج وجنوب السودان وغيرها من بلاد أفريقيا الاستوائية ، وكان العبيد يساقون من هذه الجهات إلى شمال أفريقيا وبلاد العرب وتركيا وايران ، ولكن أوروبا ما لبثت ان بذّت هؤلاء جميعاً فى تجارة الرقيق ، فكان من أكثر الدول ممارسة لها اسبانيا والبرتغال وانجلترا وهولاندا ، ويقال إن كثيرا من السفن التى كانت تمخر البحار للتجارة فى العاج والصمغ والمطاط والشمع والتوابل وغير ذلك من المواد الأولية وجدت أن تجارة الرقيق أكثر ربحاً فنبذت تجارتها الأصلية ومارست هذه التجارة ، ولعل ذلك هو السبب فى تسميتها بتجارة «العاج الأسود» ويقال إنه حدث فى سنة ١٥٦٢ أن اشترى رجل انجليزى يدعى السير ريتشارد هوكن (Sir Richard Hawkin) ثلثمائة من العبيد من غرب أفريقيا

وباعهم فى جزر الهند الغربية بربح هائل ، فلما سمعت بذلك الملكة اليزابيث ساهمت بجزء كبير من ثروتها فى هذه التجارة فدرت عليها ربحا وفيرا ، وترعرعت هذه التجارة حتى أن شركات الملاحه فى برستول وليفربول خصصت مئات السفن لهذا الغرض ، ويقال بان انجلترا وحدها فيما بين عام ١٦٨٠ و ١٧٨٠ رحّلت من غرب أفريقيا إلى مستعمراتها الأمريكية أكثر من مليونين من العبيد وأرسلت إلى جاميكا وحدها أكثر من نصف مليون .

وكانت طريقة الأوروبيين فى بيع وشراء العبيد لا تختلف عن طريقتهم فى بيع وشراء السلع الأخرى ، وكان ثمن العبد فى بلاده يتراوح بين عشرين ومائة جنيه حسب سنه وشكله وقدرته على العمل ، وكان البيع عادة يجرى فى أمكنة خصصت لذلك ، هى أشبه بصالات البيع التى نراها اليوم منتشرة فى جميع المدن ، واليك ترجمة إعلان عثروا عليه فى انجلترا عن « مزاد » لبيع عدد كبير من الزنوج .

اعلان

٢٧ يناير سنة ١٧٨٣

إنه فى يوم الأربعاء ٤ فبراير سنة ١٧٨٣ سيباع

على السفينة ثارب

(القبطان فيشر)

أربعمائة من أجود أصناف الزنوج صغيرى السن أصحاء الأبدان

(ثورب وكامبل خبيران متمنان)

فاذا ما اجتمع عدد كاف من المشترين مُرِّر العبيد أمامهم صفوفا كالخيل أو البهائم ، وكان لكل مشترٍ الحق فى فحص من يقع اختياره عليه فحصاً دقيقاً فيعاين أسنانه ويجس عضلاته ويجرب قدرته على رفع الأثقال ويجعله يجرى أمامه مسافات طويلة فاذا ما وجده ملائماً زايد فى ثمنه حتى يحصل عليه .

من الأمراض الكثيرة التى كانت تصيب هؤلاء القوم مرض النوم والملاريا والدسنتاريا والانكلستوما والجذام والتفرحات القذرة التى تبدأ بجرح بسيط لا يلبث أن يلوث

بميكروبات لا حصر لها نتيجة القذارة والاهمال ، فيتقيح الجرح ثم يتقرح و يتشعب حتى يشمل جزءاً كبيراً من جلد المريض .

ومن أهم الأمراض التى انتقلت إلى نصف الكرة الغربى مع العبيد الحمى الصفراء التى أفنت عدداً كبيراً من الأهالى واكتسحت بلاداً بأكملها . وقد كان لها شأن كبير فى تاريخ أمريكا الجنوبية ومنطقة پناما وقناتها .

وكما أن العبيد جلبوا معهم بعض الأمراض فقد كانوا هم من جهتهم أيضاً ضحية لأمراض كثيرة لم يعرفوها من قبل كالسل والزهرى مثلا . أما المرض الأول فقد أباد منهم عدداً هائلا ولا زال إلى وقتنا هذا شديد الوطأة عليهم . وأما المرض الثانى فهو أكثر قسوة عليهم منه على الأجناس البيضاء .